



شيء عن النقد عند

د. محمد بن حسين



د. عبدالله بن سليم الرشيد - السعودية

يتنازعني في الحديث عن د. محمد بن سعد بن حسين -رحمه الله- عاملان: الأول عامل التلمذة له، فقد كان أستاذاً في المرحلة الجامعية (١٤٠٦-١٤٠٧هـ) والدراسات العليا (١٤٠٨هـ). والثاني: عامل النقد الحر البعيد عن المجاملة والمراعاة، الذي يسعى إلى ما يعني الموقف الأدبي. فإن عوّلت على ما يبقى ويفيد جمعت بينهما، تقديراً لشخصه واكباراً لسابقته، وروياً لآثاره، وبياناً للرأي فيها. وحسب المنتج أن يلتفت إلى نتاجه فينقد ويشاد به في موضع الإشادة، ويشار إلى ملامح الامتياز والتفرد في موضعها.

وها أنذا أقيد شيئاً عن ابن حسين العالم المؤلف، موقناً أن ما أقوله يعدّ له لا عليه، فإن في النظر في نتاجه نوعاً من الذكر الحسن، وإن لم أوافق على بعض آرائه أو لم أتفق مع منهجه.

وسأنتكّب سبيل تعداد مآثره فهي مشهورة متواترة، وقد سبقني إلى عرضها محبوه وتلامذته، وألتفت إلى جانب من منهجه في التأليف، فلي عنه رأي أرجو أن يكون بيانه مفيداً.

إن الملاحظ أن أكثر مؤلفات ابن حسين -رحمه الله- أقرب إلى النقد الانطباعي، الذي يحتكم إلى الذوق الخالص مجرداً في كثير من الأحيان من التعليل العلمي المقنع. وهو يصير على عرض الموازنات بين الشعراء

لقد سبق ابن حسين جيله بدراسة الأدب الحديث في نجد، ثم وسّع اهتمامه بدراسة الأدب في المملكة كلها، وكانت له آثار جليّة، نبّه بها على مظاهر فنية وتيارات أدبية، وأسهم في التعريف بالأدباء، وحرّص على عرض ما يصدر من دواوين ومجموعات قصصية ومقالية، وكأننا رأى من البرّ بوطنه ومواطنيه أن يفعل ذلك. بل اتسع مدى اهتمامه فكانت له مقالات نقدية لنتاج أدباء عرب، وكثير منها لم يُجمّع بعد في كتاب على ما أعرف.



بأسلوب القدماء، وكثيراً ما يورد جملاً نقدية شاعت عندهم دون أن يكون لها دلالة واضحة، كقوله في الموازنة بين الشابّي والشابّي: «صفاء الديباجة»، فهذا تعبير عائم لا يستمسك المتلقي منه بنقد بَيِّن.

ومثل ذلك استعماله جملاً مجازية قد يكون لها عند قائلها الأول معنى واضح محدّد، مثل: «المعاني يأخذ بعضها بحُجْز بعض»، و«المعاني متدفّقة» وهلمّ جرّاً، ولكنها فقدت طراوتها وتأثيرها، وربما ليس لها من الدلالة الصارمة ما يسوّغ استعمالها. وهي تعبيرات مجازية لا تصلح للغة النقد.

وكلامى هذا لا يعني الدعوة إلى هجر التراث وطرائقه، ولكنى أقول: إن الناقد الحصيف يفيد من ثقافته التراثية ومن أساليب النقد الحديث ومناهجه، ويفتح صدره للاطلاع على المناهج الجديدة التي تتضمن إضافات واقتراحات في الدرس الأدبي والنقدي لا نستطيع الحكم بنجاحها أو إخفاقها ضربة لازب. والشئ بالشئ يُذكر: فمما أعلمه عن أستاذنا ابن حسين - رحمه الله - أنه لم يكن يُسبغ شعر التفعيلة، ولم يقبله في دائرة الشعر!

وقد ناقشته يوماً في جدوى هذا اللون من الشعر، فهاجمه مُعَنِّفاً، وجردّه من كلّ فضيلة، فأسمعتُه قطعة لنزار قباني من قصيدته (أندلسية)، فظهرت عليه سيما الإعجاب، ثم قال: لا بدّ أنك تخيّرت أحسن نماذجه. فقلت: هذا دليل على أنه يمكن أن يكون حسناً مقبولاً.



وموقفه هذا يستدعي خبر أبي عمرو بن العلاء لما أنشده بعضهم بيتين ثانيهما قوله:

**إن ما قلّ منك يكثر عندي
وكثيرٌ ممن تحبّ القليلُ**

فقال: هذا والله الديباج الخسرواني. فلمن؟ قال: هما ابنا ليلتهما. فقال: لا جرم! إن أثر الصنعة بادٍ عليهما.

أمر آخر أجده واضحاً كلّ الوضوح عند ابن حسين - رحمه الله، وهو أنه (ثعالبي) النزعة في مؤلفاته، فهو لا يخرج في أكثرها عن تجميع النصوص والتعليق عليها تعليقات موجزة. وانظر مثلاً كتابه (المعارضات في الشعر العربي). وهذا نمط من التأليف لا يعيد ولا يبدئ في مقام النقد المؤصل، ولو شئت الاعتذار له - وإني لأشاء - لقلت: إن بعض كتبه أقرب إلى فن الاختيارات الشعرية وإن كان هو يعدها نقداً ودراسة.

لقد قيل عن ابن حسين: إنه لا يتبع منهجاً من مناهج النقد. (تلك شكاة ظاهر عنك عارها)، وفي نظري أن على الأديب الناقد أن يرتاد مجاهل الإبداع في نقده، وأن يختطّ لنفسه منهجاً، ولا يضيره ألا يسلك في عداد نقاد هذا المنهج أو ذاك. والمطالبة باتباع منهج محدّد حجر وتضييق تأباهما طبيعة الأدب والنقد. وهذا مشروط بلا شك بالاطلاع على ما يجدّ بعد تحصيل الملكة النقدية وترويضها والقدرة على محاوره ما يمكن من المناهج وتجاوزها أو الإضافة إليها.

رحم الله أستاذنا محمد بن حسين، وجزاه عن أمته وعن أدبها وفكرها خير الجزاء ■